استعادة

ظلال الأسطورة تخفي صاحبها

مسرح خليل حاوي

الآن بعد مرور كل هذا الوقت على غيابه، ما زال انتحار الشاعر اللبناني مخيّماً على حياته وشعره. ليس الانتحار نفسه فقط، بل القراءة الظرفية له، ويمكن ان يكون ردّ الانتحار إلى وقته -الذي تزامن مع الاجتياح الإسرائيلي للبنان- بداية اسطورة استعارت نهاية الرجل وشعره

عباس بيضون

في السادس من حزيران/ يونيو 1982، وفي غمرة الاجتياح الإسرائيلي للبنان، انتحر الشاعر اللبناني خليل حاوي بطلقة من بندقية صيد. طغى هذا الخبر على سيرة الشاعر، وطغى انتحارُ الشاعر على شعره، بحيث صار مفتاحاً للسيرة وللشعر. بدا تزامن الانتحار مع الاجتياح الإسرائيلي لصيقاً وحاسماً، بحيث اعتُبر جواباً عليه وجزءاً منه. علم الجميع أن هذا الانتحار هو المحاولة السادسة للشاعر، أو سبقته ستّ محاولات لم تنجح. هذا العلم كان في مقدوره أن يوهن الصلة المفترضة بين الاجتياح والانتحار.

معه كان يمكن لهذا التوافق أن يبدو أقرب إلى المصادفة، بيد أن نقّاد خليل حاوي أجمعوا على أنه مقصود وواعٍ. يمكن القول إنّ هذا الانتحار، كما رُصد وفُهم، صار مدخلاً إلى قراءة شعر حاوي، بل صار مدخلاً لأسطورته الخاصة، هو الذي كان شعره، في جانب منه، محاولة لخلق أسطورة معاصرة. هذا ما جعل شعره في مجموعاته الخمس يُقرأ على أنه موازٍ للأيديولوجيا القومية العربية، بل على أنه موازٍ لجملة الأحداث العربية في حينه، من سقوط فلسطين إلى هزيمة 1967، إلى انهيار الوحدة المصرية السورية.

هذا ما نستشفه، على سبيل المثال، من كتابات ريتا عوض، الباحثة الضليعة في خليل حاوي وشعره. هذا مع أن حاوي، في كل منجزه الشعري، لم يتعرّض مباشرة لأي من الأحداث التي عصفت بالعالم العربي. لم يكن هذا أسلوبه ولا وجهته، مع أن جانباً من الشعر العربي، الذي عاصره حاوي، كان الصق بالأحداث وأكثر تناولاً لها، الشعر الفلسطيني على سبيل المثال. إلا أنّ حياته اندمغت هكذا في شعره، إلى حد أن صارا واحداً، وإلى حد سهل قراءة أيديولوجية وشبه مباشرة لشعر انطوى على كثير من الرموز والاستعارات الأسطورية، كما أنه كان، بحد ذاته، محاولة لبناء أسطورة راهنة، لعل الأثر التوراتي والمعاصر كذلك لم يكونا بعيداً عنها.

الآن بعد مرور كل هذا الوقت على غياب خليل حاوي، ما زال انتحار الشاعر مخيّماً على حياته وعلى شعره. ليس الانتحار نفسه فقط، بل القراءة الظرفية له والتي هي ليست كافية بأي وجه كان، ويمكن أن يكون ردّه (أي الانتحار) إلى وقته الذي تزامن مع الاجتياح، بداية أسطورة استعارت نهاية الرجل وشعره، بحيث بدت جميعها تحت ظل أسطوري، لا نُخطئ إذا قلنا إنه ظلم الشاعر بل غيّبه أحياناً، والآن نجد أنفسنا أمام بناء أيديولوجي يستعير الشاعر وشعره، ويطغى عليهما.

بداية هذا قد تكون في تلك التسمية التي أُطلقت على زمرة الشعراء التي عُدّ الشاعر من بينها. التسمية هي «التموزية» التي تردّ الشعر إلى أسطورة أدونيس وعشتار، التي تنتهي بانبعاث أدونيس من الموت في الربيع، بعد أن أحيته دموع عشتار. ليس يمكن القول إننا في «نهر الرماد» و«الناي والريح» بوجه خاص، أمام نصوص قد لا نُخطئ إذا قلنا إنها ذات وحدة داخلية، قد تحمل أحياناً على البحث عن الموضوع الذي ينتظمها، وقد نشطح أحياناً إلى قراءتها تحت عنوان أيديولوجي.

لكن ما يميّز نصّاً كقصيدة «الجسر» الشهيرة في «نهر الرماد»، قد يكون بالدرجة الأولى نشائيته التي تجعله أقرب إلى نشيد جماعي، وإلى ما يعنيه ذلك من فسحة درامية، يستقطب ذلك كل قصائد «نهر الرماد».

هذه الفسحة الدرامية مصوغة بنوع من الغضب الجماعي، والتنديد الجماعي، اللذين يستعيران من بعيد بنية توراتية قريبة من أشعار أشعيا وأرميا وأيوب في التوراة. إلا أن ذلك ينقلنا إلى الفضاء المسرحي في شعر خليل حاوي.

إن كان لهذا نصلة بالأيديولوجية القومية، فليس هذا عبر استعادة أركانها، بل في ما تُقدّمه من فضاء مسرحي موازٍ لها. إننا في «نهر الرماد» نجد تمثُّلاً بركانياً، لما يمكن أن نسميه بالحسرة القومية أو الغضب التاريخي. لكن نصوص «نهر الرماد» يمكنها أن تكون مونولوغات وحواريات داخلية لهذا الغضب.

يمكنها أن تكون من هذه الناحية، محاولة لكتابة نوع من سيرة جماعية. أما في «الناي والريح»، فنقع على صوت أكثر فردية وأكثر تحسّراً وأكثر تفارقاً مع نفسه، ففي قصيدة «أليعازر» نفهم أن الانبعاث هنا عودة إلى الرمز، وليس سوى المونولوغ الداخلي الذي يميّز البعازر، الذي هو شخصية درامية باماتيار، ويصل به إلى ذروة درامية في انقلابه على نفسه وعلى حياته الثانية.

قد يكون مهمّاً هنا أن شعر خليل حاوي لم يستجب للشروط الأيديولوجية التي أرادها له نقّاده، بحيث بقيت أسطورة الشخص في نظرهم فوق أسطورة النص. لذا يحتاج خليل حاوي في عودته إلى الذاكرة، هكذا إلى قراءات أخرى.

(شاعر وروائي من لبنان)

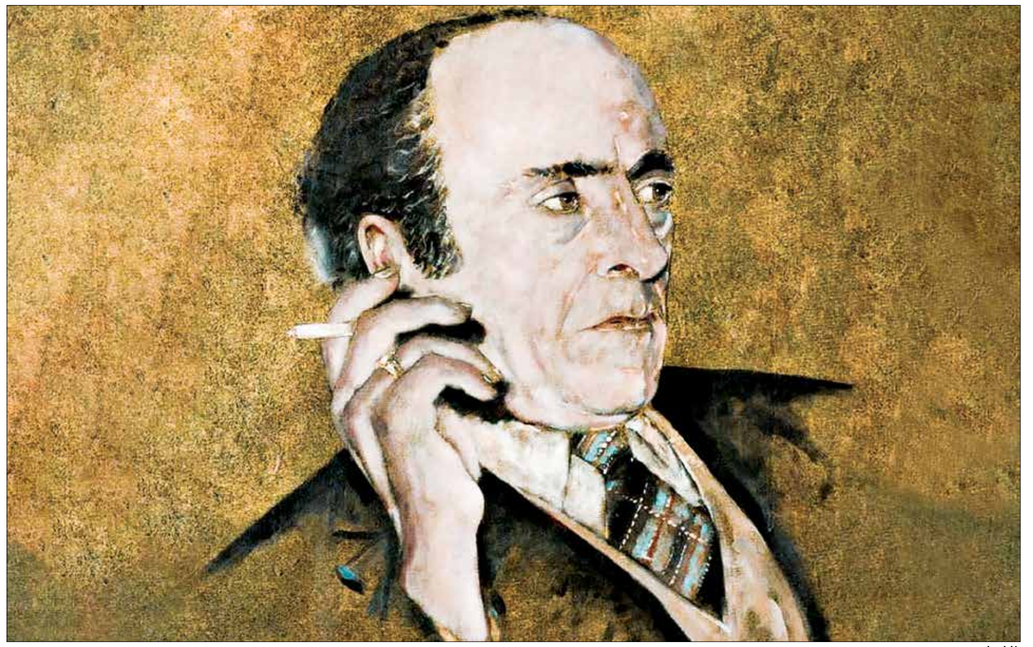
خليل حاوي

من ديوانه

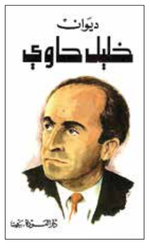

أرض الوطن: اغمضتْ عينيكِ على رمادْ/ اغمضتْ عينيكِ على سوادْ/ تغور في أرض بلا سرير/ عُضّاتكِ المرير.

■■■

لبنان: كنّا جدارًا يلتقي جدارْ/ ما اوجع الحوارْ/ ما اوجع القطيعة/ تغصّ بالفجيعة/ ما اوجع الجوارْ.

■■■

في الجنوب: جوالي سبايا الارض/ في ارضي/ وصولي واطمئني شعبي/ تنحل حقن العار/ في غيبوبة الحقن/ لن يكتوي قلبي ولن يدمى/ قلبي الأصمّ الابكم الاعمى.

خليل حاوي وحده في هذه الزمرة، فنحن نتذكّر الآن أنّ أحد أهم أركانها، يحمل اسم تموز أو أدونيس. هذه التسمية ما لبثت أن امتدّت على شعر حقبة بكاملها، بل هي تكاد تشمل القصيدة الحديثة في جزئها التفعيلي على الأقل.

أمّا ما يُميّز الشعر التموزي فهو أيديولوجيا الانبعاث، هذه الأيديولوجيا التي نسبت حينها إلى أنطون سعادة وحزبه السوري القومي الاجتماعي، لا تنحصر في هذا المؤسّس وحزبه. إذ لا ننسى أن الانبعاث أو البعث علم على الحزب المعروف الذي حكم العراق وما زال يحكم سورية. أيديولوجيا الانبعاث تكاد تكون، بعيداً عن الأحزاب التي حملتها، أيديولوجيا حقبة كاملة، ويمكن لناقد مهتم أن يجدها في طوايا نتاج أدبي وفكري لعصر كامل. وجودها على هذا النحو قد يشير إلى أنها «الأيديولوجيا العربية المعاصرة» كما سماها عبد الله العروي في كتابه المعروف.

هذا ما يدلّنا إلى أنها أدخل في التحليل الفكري منها في النقد الأدبي. لسنا نعثر في تلك الحقبة على أثر أدبي أو فكري، لا نستطيع ردّه إلى هذه الأيديولوجيا أو الانبعاث.

هذا يعني أننا لا نستطيع أن نكتفي بهذه الثيمة الأيديولوجية لقراءة خليل حاوي أو سواه من أدباء وفنّاني تلك الحقبة.

> ظلّ أسطوري لا نُخطئ إذا قلنا إنه ظَلم الشاعر بل غيّبه
>
> لم يستجب شعره للشروط الايديولوجية التي أرادها له نقّاده

فعلى الرغم من أن خليل حاوي كان يعتبر نفسه ماركسياً، وكان يقرأ ماركس وإنغلز ولينين، فإن ما يستوقفنا في شعره ليس هذه الماركسية، بل ما يمكن أن نسميه بالحسرة القومية أو الغضب التاريخي. لكن نصوص «نهر الرماد» يمكنها أن تكون مونولوغات وحواريات داخلية لهذا الغضب.

يمكنها أن تكون من هذه الناحية، محاولة لكتابة نوع من سيرة جماعية. أما في «الناي والريح»، فنقع على صوت أكثر فردية وأكثر تحسّراً وأكثر تفارقاً مع نفسه، ففي قصيدة «أليعازر» نفهم أن الانبعاث هنا عودة إلى الرمز، وليس سوى المونولوغ الداخلي الذي يميّز البعازر، الذي هو شخصية درامية باماتيار، ويصل به إلى ذروة درامية في انقلابه على نفسه وعلى حياته الثانية.

قد يكون مهمّاً هنا أن شعر خليل حاوي لم يستجب للشروط الأيديولوجية التي أرادها له نقّاده، بحيث بقيت أسطورة الشخص في نظرهم فوق أسطورة النص. لذا يحتاج خليل حاوي في عودته إلى الذاكرة، هكذا إلى قراءات أخرى.

(شاعر وروائي من لبنان)

وقفة مع

سيسيل أُمهاني

تقف هذه الزاوية، مع مبدع عربي في أسئلة سريعة حول انشغالاته الإبداعية وجديد إنتاجه وبعض ما يودّ مشاطرته مع قرّائه

بروكسل ـ العربي الجديد

■ ما الذي يشغلك هذه الأيام؟

مثل كثيرين من بني البشر، أنا منشغلة بوضعية عالمنا وهو يواجه الجائحة. إنها لحظة قطيعة تخترق حياتنا. أتساءل: كيف سيكون العالم لاحقاً؟ ما الذي خسرناه؟ ما الذي تعلمّناه من هذا الامتحان التي هزّ كوكبنا.

■ ما هو آخر عمل صدر لك وما هو عملك القادم؟

آخر أعمالي رواية بعنوان «Tunisian Yankee» (يانكي تونسي) وهي تضيء مسار تونسي يرحل عن بلده في 1912 ليستقرّ في نيويورك. أما عملي المقبل فسيكون مجموعة شعرية، من المتوقّع أن تصدر في نهاية 2021، وهي في جزء منها مستلهمة من تجربة الفنان التشكيلي جوزيف مالورد، ويليام تيرنر وما رسمه خلال رحلته إلى فرنسا في عام 1802.

■ هل أنت راضية عن إنتاجك ولماذا؟

كل كتاب هو شكل من أشكال العبور. أحاول أن أذهب إلى أبعد ما يمكن، واعلمُ أن كل عبور سيقودني إلى عبور آخر ومن ثمّ إلى آخر، في كون سيكون في كل مرة مختلفاً، وهناك أقيمُ زمنَ الكتابة.

■ لو قيّض لك البدء من جديد، أي مسار كنت ستختارين؟

لا أعتقد أنني سأسير في طريق آخر. حكاياتي مع الكتب بدأت منذ الطفولة، مع قراءاتي الأولى. وسواء كنت أقرؤها أو اكتبها، فالكتب دائماً حاضرة معي، بالقرب مني، وهي التي تُنقذني.

■ ما هو التغيير الذي تنتظرينه أو تريدينه في العالم؟

أتمنى لو أن البشر يعرفون كيف يستخرجون الدروس من أخطاء الماضي من أجل بناء عالم أفضل. أحلم أننا حين نخرج من الأزمة الحالية، أن نصبح أكثر انتباهاً إلى الآخرين وأكثر انشغالاً بمستقبل الكوكب، لأنه لا يوجد كوكب آخر يمكن أن نعيش فيه وبالتالي علينا أن نهتمّ به.

■ شخصية من الماضي تودّين لقاءها، ولماذا هي بالذات؟

كنت أود أن التقي الكاتب الهندي رابندراناث طاغور، منجزه الإبداعي ضخم ومتعدّد الأشكال، فهو شاعر وروائي وفنان تشكيلي وفيلسوف. يمشني دائماً الاهتمام الذي يخصّصه للمرأة في كتاباته، من ذلك «المنزل والعالم»، وهو رواية صدرت في 1916 أو في قصّته «شاروﻻتا» التي صدرت في 1901.

■ صديق يخطر على بالك أو كتاب تعودين إليه دائماً؟

تحضر ببالي دائماً فرجينيا وولف. لديّ ارتباط عميق بكتاباتها، وبالطريقة التي تمتزج فيها الرواية والشعر في أعمالها. كتابها ضمن جنس المحاولة؛

> الكتب دائماً حاضرة معي، بالقرب مني، وهي التي تُنقذني

كاتبة من مواليد 1952 في نامور (بلجيكا). تلتقي في أسرتها جذور تونسية وفرنسية وبريطانية. تكتب الشعر والرواية والقصة واليوميات وأدب المحاولة. تحضر تونس كعنصر إلهام ثابت في أعمالها. من مؤلفاتها: «بعيداً عن طيران الورشان» (1996)، و«باتجاه لشبونة» (1997)، «رائحة الحنة» (1999)، «حديقة في المرسى» (2003)، و«مدن العصافير» (2011)، و«تونس.. دفاتر الشك» (2013)، و«يانكي تونسي» (2016)، و«السير بعيداً عن الغيوم» (2018)، و«مذكّرات مجهولة» (2019).

بطاقة

سيسيل أمهاني في 2014

«غرفة تخص المرء وحده»، يمثل بالنسبة لي عملاً مرجعياً يتعلق بالنساء اللواتي يكتبن.

■ ماذا تقرأين الآن؟

أعيد قراءة الإلياذة والأوديسة لهوميروس. لشعره صدى يصلني عبر القرون، سيما ضمن عزلتي الحالية. أشعر بحاجة إلى أخذ مسافة مع الواقع من خلال الغوص في ماض بعيد جداً حيث الأساطير المؤسسة.

■ ماذا تسمعين الآن وهل تقترحين علينا تجربة غنائية أو موسيقية يمكننا أن نشاركك سماعها؟

أحبّ سماع إبراهيم معلوف. أحبّ موهبته التي ينسج ويمزج بها موسيقات العالم ليُسمع البشرية ما لديها من المشترك.

قصائد

قريباً من غابات أرْز الرب... بعيداً عن صحراء بَلوى الرب

ومضةُ الشّعر في موكب النّثر الطويل

وادي قاديشا في لبنان. لويس فرانسوا كاساس (1756-1827)

حكمت درباس

تكوين

ما رأيتها
لكن الرّائينَ قالوا:
كان ان ارتطمتْ شُهُبُ الغَيْبِ
بالأرض
فتناثرت في السّفحِ الصّخور
كان ان اصابَ الصّخورَ برقٌ
فارتصّفتْ حجارةُ تدشين
كان ان خَلَقَ نَسرٌ فوقَ الحجارة
فارتفعت في الأفقِ أسوارا.
وأنتِ، لم تكنْ أنتَ بعد أيها الإنسان!
أشرقَ من الأسوار نورٌ
خرجَت من النّور الدروبُ
طوّقت الدّروبُ المساكنَ
وكثّر القوم، مارسوا العشق
عُلّقت بيوت الهةٍ كثيرةٌ
هُدّمت بيوت الهةٍ كثيرةٌ
ثم عَبَرت ظبيةُ النّبع القديم
تركضُ في شوارعها:
«أنا ابنةٌ سبرةٌ لم تكتمل
قرنايَ مَرْقَدُ الشّمس
ومِسْكي عطرُ الفاتحين
أنا ابنةُ دورةٍ لن تنتهي
عيناي مرآةُ مالكُم
وجلدي غطاءُ أرائكِ الأباطرةُ
انظروا إليّ انظروا
أنا الطفلةُ التي ذبحها آباؤها».
فدنا منها الأوِيّ إلى كهفِ عُزْلتِهِ
واقتربَ المنسيُّ في سحيقِ الكلام:
«آه يا صغيرتي، أقبلي ولا تفزعي
سأمسَحُ الآلامَ عن جَسَدكِ الغضّ
أُزيلُ الشّوكَ من جلدكِ الناعم
أمسّدُ، بما أوتيتُ من رهبٍ، ظهركِ المكلوم.
إليّ يا ظبيةَ النّبع اقتربي
هاكِ عُشبًا ليس يَبلى
أنا صنوكِ في مِحْنَة البشريّ
قريبكِ في موعد الفَرَج المُخبّأ».
قال ذلك قبل أنْ سَدّدَ القنّاصُ
رماهما سيّدُ القَوْس القديم.
وأنتَ، ألم تكن أنت شاهدًا
أيها الإنسان؟

■■■

في حضرة النُّسّاك

كان ذلك قبْلَ زماننا الفانيْ:
قبلَ إنْ إلهةٌ ضيّاتُ عن قومِها
في المَجْمَعِ العُلْويّ
قبلَ إنها عَشِقَتْ في السِّرِ إنسيًا
فاضَ عن جسمها العِشقُ
صار العِشقُ ماءً
صار الماءُ نهرًا
سالَ النهرُ في الوادي
سُمّيَ النهرُ «قاديشا».
فانظُري يا ذاتَ العينيْنِ البُنيّتيْنِ
والجبينُ المعرّقِ عند الفَخذ
انظري كيف صُيّرَ فخذُها جُرفًا
كيف ابتنى النُّسّاكُ في الجُرفِ مَحْبَسَهم.
لغتانِ في مَحْبَسِ الرُّهبانِ، هنا
على ارتفاع 1400 متر من اللا يقين
قريبًا من غاباتِ أرْزِ الربّ
بعيدًا عن صحراءِ بَلوى الربّ
لغةٌ في المخطوطات قديمةٌ
وأُخرى في اللسانْ
أراميةٌ ضاعَ زمانُها
عربيةٌ تُضيّعُ الآن الزمانْ
الثانيةُ قبلَ الأولى
فاللغاتُ قبورُ اللغات
تُدفنُ مثلما يُدفنُ الناسُ في هذي البلاد.
أهبطُ الوادي مثلَ ذئبٍ فزّ من رَهَقِ الحضارة
يتساقطُ الضوءُ على تُشتات المخيّلة
يدورُ شريطُ الذكريات
مثلَ بَكَرةِ السينما القديمة
والجُرفُ شاشةُ العرض:
هي ذي الحربُ التي لم أشهدها
حربُ ثلاثينَ عامًا
ثلاثينَ تيهًا وطحنًا
ثلاثينَ ألفَ يتيمٍ ضيّعوا الآباءَ
في النّثرِ وفي التّاريخ.
لكنْ رويدًا، حَدِّقْ مليًا
ألا يشفي هذا الخَضارُ غَيْشًا أصابَ العينْ؟
ألا يرتقُ ثُقْبًا حَلّ في الذاكرة؟
أخرجَ من الوادي مثلَ وليدٍ
مُسْ بصاعقةِ الغيبِ تَطهّرْ

(شاعر وباحث من فلسطين)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

فعاليات

حتى السادس من الشهر المقبل، يتواصل في «مطافي: مقرّ الفنانين» بالدوحة معرض فنّي بعنوان **تدفُّق صوتي**، بمشاركة عدد من التشكيليّين والموسيقيّين ومهندسي الصوت والمهندسين المعماريّين، من بينهم: **سونيك جيل**، و**مبارك آل ثاني**، و**عالية آل خليفة**، و**غيوم روسييره** (العمل)، **وروبث بيندر**، و**مريم رفاعي**، و**سيباستيان بيتانكور**.

تحت عنوان **الإنسانيات الرقمية والسرديات**، يُلقي الناقد المغربي **سعيد يقطين** (الصورة) محاضرة، عند الحادية عشرة من صباح الاربعاء المقبل في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في تطوان، يتحدّث فيها عن علاقة السرديات بـ«الإنسانيات الرقمية»؛ وهو مبحثٌ يضمُّ مجموع العلوم الإنسانية والاجتماعية والآداب والفنون في صلتها بالمجال الرقمي.

تُقيم «جمعية جلجامش» في مونتريال الكندية، عند السابعة من مساء السبت المقبل، عرضاً عبر منصّة «زووم» لفيلم **الليك الطويل** للمخرج السوري الراحل **حاتم علي**، تتبعه جلسة نقاشية. يتناول الشريط (2009) قضية المعتقلين السياسيّين في سورية، من خلال قصّة ثلاثة سجناء يُفرج عنهم بعد عشرين سنة من الاعتقال.

على خشبة «مسرح الجمهورية» في القاهرة، تُقيم **فرقة الموسيقى العربية للتراث**، عند الثامنة من مساء الخميس الثامن عشر من الشهر الجاري، حفلاً موسيقياً تُقدّم فيه عدداً من ابرز اعمال الموسيقي المصري الراحل **محمد الموجي**؛ مثل: **اسال روحك**، و**فنجان قهوة**، و**للصبر حدود**، و**لفّي البلاد يا صبية**.